بـيـن فـصـاحـتـيـن

أ. إبـراهيم طبشي
جامعة قاصدي مرباح. ورقلة

يجرى إستعمال كلمة "الفصاحة" وتداولها عند البلاغيين واللغويين، فهل مدلول هذه الكلمة واحد عند هؤلاء وأولئك؟ أم إن هناك فرقا في المدلول يقتضي وجود شروط عند اللغويين تختلف عن تلك التي يضعها البلاغيون؟ ذلك ماسنحاول الإجابة عنه في هذا المقال. ولنبدأ بما تعنيه هذه الكلمة عند اللغويين.

يورد السيوطي في "المزهر" تعريفا للفصيح فيقول:" قال الراغب في مفرداته" الفصح: خلوص الشيء مما يشوبه، وأصله في اللبن، يقال: فَصُح اللبن وأفصح فهو فصيح ومفصح إذا تعرى من الرغوة قال الشاعر:

وتحت الرغوة اللبن الفصيح.

ومنه استعير فصح الرجل: جاءت لغته، وأفصح تكلم بالعربية(1).

من خلال هذا التعريف يتبين لنا أن هناك علاقة بين المدلول اللغوي لهذا اللفظ والمدلول الاصطلاحي الذي استعمله العلماء بعد ذلك، وهو أن هذه المادة تعني التخلص من شيء كان يمنع من الظهور والانجلاء، فالرغوة تمنع اللبن من الظهور(في التعريف اللغوي) وإذا تخلص منها صار فصيحا ومفصحا، والعجمة تمنع العجمي من الإبانة عما في نفسه(في التعريف الاصطلاحي) فإذا تخلص منها جادت لغته.

ويورد صاحب كتاب" الصناعتين" تعريفا لا يبتعد عن التعريف السابق فيقول "فأما الفصاحة فقد قال قوم: إنها من قولهم: أفصح فلان عما في نفسه إذا أظهره، والشاهد على أنها هي الإظهار قول العرب: أفصح الصبح إذا أضاء،وأفصح اللبن إذا انجلت رغوته فظهر، وفصح أيضا، وأفصح الأعجمي إذا أبان بعد أن لم يكن يفصح ويبين، وفصح اللحان إذا عبر عما في نفسه وأظهره على جهة الصواب دون الخطأ"(2).

هذا التعريف لا يختلف عن التعريف السابق إلا فيما يتعلق بالجزء الأخير منه وهو فصاحة صاحب اللحن، فالمعروف أن العرب كانوا أمة منغلقة على نفسها وبذلك استطاعوا أن يحافظوا على نقاء لغتهم، ولكن هذا العامل زال بمجيء الإسلام ودخول أقوام من العجم فيه، فتولد من هذا الانفتاح شعور بالخطر هي اللغة العربية وكيانها وعلى القرأن الكريم، وانبرى لهذه المهمة علماء فطاحل قعَّدوا القواعد وجمعوا اللغة وحددوا الأطر الزمانية والمكانية للفصاحة اللغوية أو بعبارة أخرى لمن الاستشهاد بكلامهم نثرا وشعرا، فما هي هذه الشروط المكانية والزمانية التي حددها العلماء؟.

يعقد ابن فارس في" الصحابي" بابا في أفصح العرب فيقول:" أجمع علماؤنا بكلام العرب والرواة لأشعارهم، والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالهم أن قريشا أفصح العرب ألسنة وأصفاهم لغة. وذلك أن الله جل ثناؤه اختارهم من جميع العرب واصطفاهم، واختار منهم نبي الرحمة محمدا صلى الله عليه وسلم...

وكانت قريش، مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها، إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم. فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى نحائزهم وسلائقهم التي طبعوا عليها. فصاروا بذلك أفصح العرب.

ألا ترى أنك لا تجد في كلامهم عنعنة تميم، ولا عجرفية قيس، ولاكشكشة أسد ولا كسكسة ربيعة، ولا الكسر الذي تسمعه من أسد وقيس مثل:" يعلمون" و"يعلم" ومثل"شعير" و"بعير"(3).

" وروى أبو عبيد من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، قال: نزل القرآن على سبع لغات منها خمس بلغة العجز هوازن، وهم الذين يقال لهم عليا هوازن، وهم خمس قبائل أو أربع،

منها سعد بن بكر، وجشم بن بكر، ونصر بن معاوية، وثغيف. قال أبو عبيد: وأحسب أفصح هؤلاء بني سعد بن بكر، وذلك لقول رسول الله (ص): "أنا أفصح العرب بيد أني من قريش، وأني نشأت في بني سعد بن بكر". وكان مسترضعا فيهم، وهم الذين قال فيهم أبو عمرو بن العلاء: أفصح العرب عليا هوزان وسفلى تميم"(4).

من خلال هذين النصين يتبين لنا أن أفصح العرب قبائل قريش وسعد بن بكر وجشم بن بكر ونصر بن معاوية وثغيف".

ويستكمل السيوطي استعراض القبائل الأخرى فيما ينقله عن الفارابي في كتابه المسمى " بالألفاظ والحروف" :" كانت قريش أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعا، وأبينها إبانة عما في النفس، والذين عنهم نقلت اللغة العربية، وبهم اقتدي، وعنهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم قيس وتميم وأسد، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ و معظمه وعليهم اتكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف، ثم هذيل، وبعض كنانة، وبعض الطائيين، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم"(5).

هي إذن مجموعة من القبائل حكم اللغويون بفصاحتها وسلامتها اللغوية يمكن اعتبارها محددة للحيز المكاني والرقعة الجغرافية لمن كانوا ينطقون اللغة العربية على السليقة وعلى صفائها الأول، دون أن يعكر هذا الصفاء شائبة من شوائب تأثير الأعاجم المتاخمين للعرب في موطنهم الأول شبه الجزيرة العربية، ومن هنا كان استثناء العلماء اللغويين لقبائل أخرى لم تستطع أن تحافظ على صفائها اللغوي" فإنه لم يؤخذ لا من لخم، ولا من جذام، لمجاورتهم أهل مصر والقبط، ولا من قضاعة وغسان وإياد لمجاورتهم أهل الشام وأكثرهم نصارى يقرؤون بالعبرانية، ولا من تغلب واليمن فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان، ولا من بكر لمجاورتهم للقبط والفرس، ولا من عبد القيس وأزد عمان، لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة، ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم، ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدؤوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم"(6).

أما الحدود الزمانية للفصاحة اللغوية فقد حددها العلماء بثلاثة قرون منها 150 قبل الإسلام و150 بعده، وقال الأصمعي في هذا الشأن: ختم الشعر بإبراهيم بن هرمة(ت176هـ) وهو معاصر لسيبويه (ت180هـ) وربما كان انقضاء أجل سيبويه هو الذي جعل الشاهد الشعري يقف عند هذا الشاعر.

ومن هنا نفهم ما يعتبر حجة في اللغة يتوقف على نصوص الأدب الجاهلي أو المخضرم أو الإسلامي أو الأموي. ويخرج من دائرة الاستشهاء ما كان عباسيا وما كان مولدا، وما جاء بعد هذه العصور، فلا احتجاج بشعر المتنبي ولا ابن الرومي ولا المعري.(7)

ويبدو من خلال تحديد هذه الشروط المكانية والزمانية للفصاحة اللغوية أن العلماء، اللغويين كانوا يركزون على صفة السليقة أي أن يكون الفصيح من أولى شروط فصاحته اللغوية أنه كان قد أخذ اللغة من بيئته الأولى ولم يتعلمها من معلم أو بعبارة أخرى أن تكون هذه اللغة هي اللغة الأم أو لغة المنشأ، كما كانت اللغة العربية في العصر الجاهلي وفي عهد النبي (ص).

ونختم الحديث عن هذا النوع الأول من الفصاحة بما كان يعنيه هذا المصطلح في زمان سيبويه كما يرى الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح، فمن مدلولاته الأساسية:

1- صفة من ترتضى عربيته: أي كون الناطق العربي الفصيح ترضى عربيته ويوثق بلغته ويؤخذ بها.

2- السلامة اللغوية: أي كون هذا الناطق ينطق بكلام عربي بالتمام سليما عن الخطأ اللغوي الذي لا يعرفه الفصحاء إطلاقا.

3- الاستعمال الكثير المعروف من كلام الفصحاء: ومن ثم الكلام بالنسبة لهم، أي كون هذا الناطق يتكلم بالواضح من الكلام بالنسبة لجميع أفراد المجتمع العربي الفصيح ولما يستعمله أكثر العرب الفصحاء.

4- السليقية الخاصة بالفصيح:كون الناطق الفصيح- أيا كان بدويا أم حضريا- اكتسب العربية الفصيحة من بيئته التي نشأ فيها أي أن تكون لغته الأولى وألا يكون تعلمها من ملقن.(8)

وإذا انتقلنا إلى النوع الثاني من الفصاحة وهو الفصاحة البلاغية وجدنا مدلولا آخر وشروطا أخرى لهذا المصطلح يضعها البلاغيون.

فمن هذه الشروط صفات تتعلق بالمتكلم وأخرى بالكلمة وثالثة بالكلام.

فأما التي تخص المتكلم فهي التي عناها أبو هلال العسكري بقوله:" وقال بعض علمائنا : الفصاحة تمام آلة البيان، فلهذا لا يجوز أن يسمى الله تعالى فصيحا، إذ كانت الفصاحة تتضمن معنى الآلة ولا يجوز على الله تعالى الوصف بالآلة، ويوصف كلامه بالفصاحة لما يتضمن من تمام البيان".(9)

فالفصيح إذن حسب تعريف أبي هلال العسكري من تمتع بآلة تامة البيان، وبعبارة أخرى من كان جهازه النطقي سليما وكان قادرا على إخراج الأصوات من مخارجها وبصفاتها المتعارف عليها. ولنا أن نقف هنا عند الموانع التي تمنع المتكلم من أن يكون فصيحا.

يعقد الجاحظ في كتابه "البيان والتبيين" فصلا بعنوان" ذكر الحروف التي تدخلها اللثغة " فيقول.

" وما يحضرني منها وهي أربعة أحرف القاف والسين واللام والراء. فأما التي هي على الشين المعجمة فذلك شيء لا يصوره الخط لأنه ليس من الحروف المعروفة وإنما هو مخرج من المخارج لا تحصى ولا يوقف عليها...

فاللثغة التي تعرض للسين تكون تاء كقوله أبي يكسوم أبي يكثوم وكما يقولون بثرة إذا أرادوا بسرة وباثم الله إذا أرادوا باسم الله.

والثانية اللثغة التي تعرض للقاف فإن صاحبها يجعل القاف طاء فإذا أراد أن يقول قلت له قال طلت له.

وأما اللثغة التي تقع في اللام فإن من أهلها من يجعل اللام ياء فيقول بدل قوله اعتللت اعتييت وبدل جمل جمي...

وأما اللثغة التي تقع في الراء فإن عددها يضعف على عدد لثغة اللام لأن الذي يعرض لها أربعة أحرف فمنهم من إذا أراد أن يقول عمرو قال عمي فيجعل الراء ياء، ومنهم من إذا أراد أن يقول عمرو قال عمغ فيجعل الراء غينا ومنهم من إذا أراد أن يقول عمرو قال عمذ فيجعل الراء ذالا.. ومنهم من يجعل الراء ظاء.. ومنهم من يجعل الراء غينا...

واللثغة في الراء إذا كانت بالياء فهي أحقرهن وأوضعهن لذي المروءة ثم التي على الظاء ثم التي على الذال، فأما التي على الغين فهي أيسرهن. ويقال إن صاحبها لو جهد نفسه جهده وأخذ لسانه وتكلف مخرج الراء على حقها و الإفصاح بها لم يكن بعيدا من أن تجيبه الطبيعة ويؤثر فيها ذلك التعهد أثرا حسنا...(10)

وبعد أن ينهي الجاحظ حديثه عن اللثغة ينتقل إلى عوارض أخرى تمنع المتكلم من الفصاحة فيقول :" قال الأصمعي إذا تتعتع اللسان في التاء فهو تمتام وإذا تتعتع في الفاء فهو فأفاء ... وقال أبو عبيدة إذا أدخل الرجل بعض كلامه في بعض فهو ألفّ وقيل بلسانه لفف... وقال محمد بن سلام الجمحي: "كان عمر الخطاب رضي الله تعالى عنه إذا رأى الرجل يتلجلج في كلامه قال خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد". ويقال في لسانه حبسة إذا كان الكلام يثقل عليه ولم يبلغ حد الفأفاء والتمتام. ويقال في لسانه لكنّه إذا أدخل بعض حروف العجم في حروف العرب وجذبت لسانه العادة الأول إلى المخرج الأول، فإذا قالوا في لسانه حُكلة فإنما يذهبون إلى نقصان آلة المنطق وعجز أداة اللفظ حتى لا تعرف معانيه إلا بالاستدلال."(11)

فقد أحصى الجاحظ إذن من الأمراض التي يصاب بها اللسان فتمنع صاحبها من الفصاحة اللثغة والتمتمة والفأفاة واللجلجة والحبسة واللكنة والحكلة.

وننتقل بعد هذا إلى شروط فصاحة الكلمة.

تتمثل هذه الشروط التي يضعها البلاغيون في خلوها من الصفات الأتية:

1- تنافر الحروف: ويمثلون لذلك بلفظة " مستشزرات " في قول امرئ القيس:

غدائره مستشزرات إلى العلا تضل العقاص في مثنى ومرسل.

ويقولون عنها بأنها لفظة مستكرهة لثقلها على اللسان وعسر النطق بها.

2- غرابة اللفظ: ويمثلون لها بكلمة" مسرجا" في قول رؤبة بن العجاج:

والسخط قطاع رجاء من رجا أزمان أبدت واضحا مفلجا

أغر براقا وطرفا أبرجا ومقلة وحاجبا مزججا

وفاحما ومرسنا مسرجا وكفلا وعثا إذا ترجرجا

فالشاهد هو لفظ" مسرجا" الذي يصف به الشاعر أنف هذه المرأة فهو كالسيف السريجي في دقته واستوائه، أو كالسراج في بريقه وضيائه. والغرابة أدت إلى الاختلاف في تخريجه وفي تحديد المعنى المراد منه، وهو ما ينقص من درجة فصاحته كما يقولون.

3- مخالفة القياس: ويمثلون لهذه الصفة بلفظة"الأجلل" في أرجوزة أبي النجم الفضل بن قدامة العجلي في قوله:

الحمد لله العلي الأجلل

الواهب الفضل الوهوب المجزل

أعطى فلم يبخل ولما يبخل

فالشاهد هنا هو مخالفة القياس اللغوي في قوله"الأجلل" إذ القياس"الأجل" بالإدغام.(12)

بيد أن هناك من البلاغيين من لم يقر بفصاحة الألفاظ وهي مفردة أي خارج السياق، يقول عبد القاهر الجرجاني:"وهل تجد أحداً يقول: هذه الألفاظ فصيحة إلا وهو يعتبر مكانها من النظر، وحسن ملائمة معناها لمعاني جاراتها، وفضل مؤانستها لأخواتها، وهل قالوا: لفظة متمكنة ومقبولة، وفي خلافه قلقة ونابية ومستكرهة إلا وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناهما، وبالقلق والنبو عن سوء التلائم، وأن الأولى لم تلق بالثانية في معناها، وأن السابقة لم تصلح أن تكون لفقا للتالية في مؤداها؟"(13) ثم يزيد الأمر وضوحا فيقول:" فقد اتضح إذن اتضاحا لا يدع للشك مجالا أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولامن حيث هي كلم مفردة، وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملائمة معنى اللفظة بمعنى التي تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ"(14)

أما ما يتعلق بشروط فصاحة الكلام أو التركيب فتتمثل فيما خلوه مما يلي:

1- ضعف التأليف في الكلام وخروجه عن قواعد اللغة المطردة:

ويمثلون لذلك بقول حسان بن ثابت:

ولو أن مجدا أخلدالدهر واحدا من الناس أبقى مجده الدهر مطعما.

فالضمير في كلمة"مجده" يعود إلى"مطعما" وهو متأخر في اللفظ والرتبة، والأصل أن الضمير يعود على متقدم، ولذلك كان البيت غير فصيح.

2- تنافر الألفاظ في الكلام:

ويمثلون لذلك بقول الشاعر:

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر.

فالألفاظ في هذا البيت ثقيلة على السمع واللسان ولعل السبب في ذلك يعود إلى حروفها المتقاربة، ولذلك قيل إنه لا يتهيأ لأحد أن ينشد هذا البيت ثلاث مرات متواليات دون أن يتعتع أي يتلعثم.

3- التعقيد اللفظي والمعنوي:

فالتعقيد اللفظي يمثل له البلاغيون بقول الفرزدق مادحا إبراهيم المخزومي خال هشام بن عبد الملك بن مروان:

وما مثله في الناس إلا مملكا أبو أمه حي أبوه يقاربه.

فالشاعر في البيت قد فصل بين"أبو أمه"وهو مبتدأ، و"أبوه" وهو خبر المبتدأ بأجنبي وهو"حي" .وكذلك فصل بين النعت والمنعوت وهما"حي يقاربه" بأجنبي وهو"أبوه"ثم قدم المستثنى وهو"مملكا" على المستثنى منه، وهو"حي يقاربه"

فنظم البيت كما نرى في غاية التعقيد اللفظي، وكان من حق الناظم ان يقول: وما مثله في الناس أحد يقاربه إلا مملكا أبو أمه أبوه.

وأما التعقيد المعنوي فيمثلون له بقول العباس بن الأحنف:

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا وتسكب عيناي الدموع لتجمدا

قصد الشاعر في هذا البيت: أطلب وأريد البعد عنكم أيها الأحبة لتقربوا، إذ من عادة الزمان الإتيان بضد المراد، وكذلك أطلب الحزن الذي هو لازم البكاء ليحصل السرور.

فالشاعر أراد أن يكني عما يوجبه دوام التلاقي من السرور بالجمود، لظنه أن الجمود هو خلو العين من البكاء، وقد أخطأ في مراده إذ جمود العين هو خلوها من الدمع أو بخلها بالدمع، وإذن فالجمود لا يكون كناية عن السرور بل عن البخل(15)

هكذا إذن ومن خلال هذا الاستعراض المختصر لمدلول كل من الفصاحة اللغوية والبلاغية وشروطهما رأينا اختلاف الغويين والبلاغيين تبعا لاختلاف الدرسين اللغوي والبلاغي والهدف منهما، فما كان يهم اللغويين إنما هو المحافظة على كيان اللغة العربية وسلامتها من كل ما يهددها من آثار العجمة عليها أما البلاغيون فقد تركز اهتمامهم على المتكلم بهذه اللغة وقدرته على تبليغ مراده ومقاصده إلى المتلقين دون التفات إلى ما كان وضعه اللغويون من شروط الزمان والمكان.

الإحـــــالات

1- السيوطي: المزهر في علوم اللغة وأنواعها، المكتبة العصرية صيدا- بيروت الطبعة 1987 ج1ص: 184.
2- العسكري أبو هلال، كتاب الصناعتين، المكتبة العصرية صيدا –بيروت، الطبعة 2004 ص 07.
3- الصاحبي في فقه اللغة العربية و مسائلها وسنن العرب في كلامها، دار الكتب العلمية ط1 سنة 1997ص 28-29.
4-السيوطي، المزهر ص 210-211.
5-نفسه ص ..211
6- نفسه ص212.
7-انظر خان محمد، مدخل إلى أصول النحو، دار الهدى عين مليلة الجزائر(د.ت) ص08.
8-انظر الحاج صالح عبد الرحمان، السماع اللغوي العلمي عند العرب ومفهوم الفصاحة، موفم للنشر- الجزائر 2007ص 38-39.
9-انظر العسكري أبو هلال، كتاب الصاعتين ص 07
10- انظر الجاحظ، البيان والتبيين، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط (د.ت) ج1 ص 20-22.
11- نفسه ص22-23.
12-انظر عتيق عبد العزيز، علم المعاني، دار النهضة العربية الطبعة 1974 ص 18-20.
13-الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجاز، موفم للنشر الطبعة 1991 ص58-59.
-14 نفسه ص60.
15- انظر عتيق عبد العزيز، علم المعاني ص20-24